النشـــــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٣ / ٢٠٠١

الأحد ٢١ كانون الثاني
تذكار أبينا البار مكسيموس
المعترف والقديس الشهيد
ناوفيطوس

اللحن السادس
إنجيل السَحَر التاسع

الـــرســـالـــة (كولوسي ٣ : ٤ ١١)
الإنـــجـــيـــل (لوقا ١٧ : ١٢-١٩)

+ القديس مكسيموس المعترف

في الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني تُعيِّد الكنيسة المقدسة للقديس مكســـيموس المعترف.

وُلد القديس مكسيموس قرابة العام ٥٨٠، وتختلف المصادر في تحديد منشـــأه، فـــهو بحسب كاتب سيرته باللغة اليونانية مولود في القسطنطينية في عائلة نبيلة، وقد شغل ردحًا من الزمن منصب الكاتب الأول لدى الملك البيزنطي هرقل (٦١٠-٦٤١). أما سيرة القديس باللغة السريانية، التي اكتُشفت حديثًا، فتعيد أصوله إلى بلدة خسفين في مرتفعات الجـــولان حاليًـــا. الأكيد أن القديس مكسيموس أحرز ثقافة رفيعة المستوى، وهذا ما تدل عليه كتاباته التي تـبرز

معرفة لاهوتية وفلسفية مترامية، وأنه اضطر، بعد اعتناقه الرهبنة، إلى مغادرة الشرق ــ ربما بسبب الحملات الفارسية على الإمبراطورية البيزنطية (٦١٤-٦٢٦). وتشير إحدى رسائل القديس المعترف إلى وجوده عام ٦٣٢ في قرطاجة في دير إفقراطس ــ ويُرجح أن صفرونيوس الدمشقي، الذي سيصبح في ما بعد بطريركًا على أورشليم، كان آنئذٍ على رأس هذا الدير.

زخرت فترة وجود القديس مكسيموس في إفريقية الشمالية بأعمال نسكية ولاهوتية هي الأبرز في إرثه. وأهمها مجموعة تفسيرية موجهّة إلى رئيس دير ليبي يُدعى ثالاسيوس يشرح فيها المعترف مقاطع عسيرة من الكتاب المقدس، ومجموعة أخرى تتناول نصوص صعبة من القديسين ديونيسيوس المنحول المعروف بالاريوباغي وغريغوريوس اللاهوتي.

شهدت بداية العقد الرابع من القرن السابع ظهور بدعة القائلين بالمشيئة الواحدة، وكان هذا التعليم الجديد محاولة يدعمها البلاط الملكي لإيجاد صيغة توافقية بين أنصار مجمع خلقيدونية (٤٥١) القائلين بالطبيعتين في المسيح، ورافضي هذا المجمع القائلين بطبيعة واحدة. وكان من الطبيعي أن تنهال الرسائل الإستشارية على القديس مكسيموس في هذا الشأن، لا سيّما أن شهرته كأهم لاهوتي في الإمبراطورية البيزنطية في زمنه كانت قد طبقت الآفاق. آثر المعترف، أولاً، عدم الإنخراط مباشرة في المشادة، تاركًا لأبيه الروحي صفرونيوس، الذي كان قد أصبح بطريرك المدينة المقدسة (٦٣٤-٦٣٨)، مسؤولية مواجهة التعليم الجديد. بيد أنّ اشتداد ساعد أصحاب البدعة وموت صفرونيوس عام ٦٣٨ دفعاه إلى دخول حلبة الصراع والدفاع عن مشيئتين إلهية وإنسانية في المسيح. وقد بنى القديس المعترف دفاعه هذا على كون المسيح إلهًا كاملاً وإنسانًا كاملاً، الأمر الذي يقضي بأن تكون لديه مشيئة إلهية تامة وأخرى إنسانية تامة. ويدعم هذا حادثة نزاع يسوع في الجسمانية قبل موته. فطلب المخلّص من أبيه أن تعبر عنه كأس الموت، ثم قبوله هذه الكأس، برهان على أنه كانت لدى يسوع مشيئة إنسانية كاملة تطيع مشيئته الإلهية.

ابتداءً من عام ٦٤٠ صار القديس مكسيموس قلب المقاومة ضد البدعة الجديدة، فأجرى عام ٦٤٥ مجادلة علنية مع البطريرك القسطنطيني المخلوع بيروس Pyrrhos، اضطر هذا الأخير إثرها إلى الإعتراف بالمشيئتين في المسيح. بعد ذلك، انتقل القديس إلى روما وشارك عام ٦٤٩ في مجمع اللاتران الذي انعقد أيام البابا مرتينوس الأول (٦٤٩-٦٥٥) وحكم على بدعة المشيئة الواحدة، وقد كانت للمعترف اليد الطولى في التحضير لهذا المجمع وصياغة مقرراته.

بات تحرك القديس مكسيموس يشكّل تهديدًا لسياسة الملك البيزنطي كونستانس الثاني (٦٤١-٦٦٨) الداعم لبدعة المشيئة الواحدة، الأمر الذي أدّى إلى القبض على المعترف ونفيّه إلى بيزيا، على الحدود التركية البلغارية حاليًا، حيث بقي حتى عام ٦٥٦. إثر ذلك، تم نقل القديس مكسيموس إلى دير بالقرب من رغيوم، التي لا تبعد كثيرًا عن العاصمة الملكية، ثم نفيه إلى بربيرس. يوم ١٨ نيسان ٦٥٨ رفض القديس محاولة ملكية أخيرة لثنيه عن موقفه وإقناعه بتنازلات لمصلحة التعليم المغلوط مردداً جملته الشهيرة «الكنيسة هي الإعتراف القويم بالإيمان». بعد ذلك، اقتيد إلى القسطنطينية حيث حوكم، وقطع لسانه ويده اليمنى، ثم نفي إلى لازيكا في بلاد الكرج (جورجيا) على الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، حيث رقد بالرب يوم السبت ١٣ آب ٦٦٢. ولقد استحق القديس مكسيموس بفضل مجاهرته بالإيمان القويم لقب «المعترف».

+ من أقوال القديس مكسيموس المعترف

+ لا توجد نفسٌ عاقلة أكرم، بحسب الجوهر، من نفس عاقلة أخرى. فالله خلق، بما أنه صالح، كل نفس بحسب صورته، وأتى بها إلى الوجود قادرة على الحركة من تلقاء ذاتها. غير أن كل نفس، بحسب إرادتها، إما أن تختار الكرامة أو تقبل الذل بملء إرادتها عبر الأعمال.

+ الله شمس العدل، كما كُتب. ويُشرق ببساطة، على الكل أشعة صلاحه. أما النفس فمن طبيعتها، وبحسب العزم، أن تصبح شمعًا، إذا كانت مُحبَّة لله، أو تصير وحلاً، إذا كانت مُحبَّة للمادة. فكما أن الوحل، بحسب الطبيعة، يجفّ في الشمس، والشمع، طبيعيًا، يلين، كذلك تصبح كل نفس مُحبَّة للمادة والعالم، رغم توبيخ الله، قاسية، فتعكس بحسب العزم، صورة الوحل، وتجرّ نفسها إلى الهلاك مثل فرعون. أمّا كل نفس محبَّة لله فتصبح ليّنة كالشمع، مقتبلة ختم الإلهيات وطابعها، وصائرةً مسكنًا لله في الروح.

+ إنّ من أنار الذهن (بالإلهيات) ودرّب العقل على تمجيد الخالق بتسابيح إلهية بلا انقطاع، وقدّس الحس بالخيالات غير الملوثة، هذا أضاف إلى الجمال الطبيعي بحسب الصورة خير العزم بحسب المثال.

+ يحفظ المرء النفسَ لله غيرَ ملوثة إذا دفع الذهن نحو الله وحده وفضائله، وجعل العقل مفسِّرًا مستقيمًا لهذه الفضائل وشارحًا لها، وعلم الحس أن يتصور العالم المرئي وكلَّ ما فيه بحسن عبادة، ويعلن للنفس عظمة المبادئ التي فيه.

+ إن الله الذي حرّرنا من عبودية الشياطين الطغاة المرّة منحنا الدعة نير عبـــادة الله، محبًّـــا للبشر. فبواسطة الدعة تخضع كل قوة شيطانية، ويُنشأ للذين اختاروها كل خير، ويُحفظ غـــير منثلم.

+ المؤمن يخاف، والخائف يتّضع، والمتضع يصبح وديعًا، جاعلاً حركات الغضب والشـــهوة المخالفة للطبيعة غير فاعلة. أما الوديع فيحفظ الوصايا، وحافظ الوصايا يتطهّر، والمتطـــــهّر يستنير، والمستنير يؤهَّل للإقتران بالكلمة العروس في مخدع الأسرار.

+ إن الحكيم، معلّمًا كان أم متعلّمًا، لا يريد أن يتعلّم أو يعلّم إلا ما يفيد. أمـــا الحكيـــم فـــي الضاهر، سائلاً كان أم مسؤولاً، فلا يقدّم إلا ما هو كثير السطحية.

+ لا تستطيع النفسُ أن تمتد إلى معرفة الله ما لم يلمسها اللهُ نفسه بتنازله، ويرفعـــــها إليـــه. فالذهن البشري ما كان قادراً على الصعود بهذا المقدار، حتى بلوغ النور الإلهي، لو لم يعرفه الله نفسه، بقدر ما هو مستطاع للذهن البشري أن يرتفع، منيرًا إيّاه بالإلتماعات الإلهية.

+ دستور الإيمان

«... مساوٍ للآب في الجوهر...»

«وهذه هي الشهادة ان الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه، من له الإبن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (١ يو ٥: ١١-١٢).

يشدِّد دستور الإيمان على أن ابن الله الوحيد، الرب يسوع المسيح، مساوٍ لـــلآب فـــي الجوهر. هذا التشديد جاء ردًا على آريوس الهرطوقي الذي علّم ان يسوع ليس ابن الله وليـــس مساويًا للآب في الجوهر، نتيجة سوء فهمه لبعض العبارات الإنجيلية مثل «لأن أبـــي أعظـــم مني» (يو ١٤: ٢٨).

لقد بنى الرب يسوع كنيسته على صخرة اعتراف الرسول بطرس الذي أعلن: «أنـــت هو المسيح ابن الله الحي فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا... أنت بطـــرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي» (متى ١٦: ١٥-١٨). مضمون هذا الإعـــتراف الإيمـــاني كان السبب المباشر لصلب اليهود ليسوع إذ لما سأل بيلاطس رؤساء الكهنة لمـــاذا يريـــدون صلبه، أجابوه «لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله» (يـــو ١٩: ٧)، «قد جدَّف، ما حاجتنا بعد إلى شهود» (راجع متى ٢٦: ٦٣-٦٥). وعندما عمَّد يوحنـــا المعمدان يسوع قال «أنا قد رأيتُ وشهدتُ إن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣٤).

لو كان يسوع أقل كرامة من الآب وليس مساويًا له في الجوهر، كيـــف يقـــول عـــن نفسه: «كما ان الآب يُقيم الأموات ويُحيي كذلك **الإبن** أيضًا يُحيي من يشاء لأن الآب لا يديـــن

أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للإبن، لكي يكرّم الجميع الإبن كما يكرمون الآب. من لا يكـرّم الإبن لا يكرّم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢١-٢٣). فإذا كان الإبن يُحيي مـن يشـاء وهـو الديان فهذا يعني انه مساوٍ للآب في الجوهر لأن هاتين الصفتين هما من صفات الله وحـده. هذا ما نستنتجه أيضًا من كلام الملاك ليوسف: «... ستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلّـص شعبه من خطاياهم» (متى ١: ٢١)، ومما قاله الرب يسوع لنيقوديموس: «هكـذا أحـب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديـة. الـذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو ٣: ١٦و١٨). فكيف لا يكون يسوع هو الله إذا كان الخلاص والحياة الأبدية متعلقين به وهو القائل «ليـس أحدٌ يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦)؟ وكيف نفسر قول يسوع «أنا والآب واحد» و«آمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا ان الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٠ و٣٨).

عندما شفى يسوع المخلّع يوم السبت انتفض اليهود ضده فقال لهم يسوع: «أبي يعمـل حتى الآن وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه لأنه لم ينتقض السـبت فقط بل قال أيضًا ان الله أبوه، معادلاً نفسه بالله» (يو ٥: ١٧-١٨). ولما أقـام لعـازر قـال لمرتا: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًّا وآمن بي فلـن يموت إلى الأبد... ألم أقل لك إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٢٥ و٢٦ و٤٠). ألا تعنـي هذه الكلمات ان يسوع هو الله، وأنه مساوٍ للآب في الجوهر؟ لقد هربت الشياطين مـن أمـام وجهه صارخة «ما لنا ولك يا يسوع ابن الله» (متى ٨: ٢٩)، واليهود تعجبوا لما قال للمفلوج «يا بني مغفورة لك خطاياك. وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكرون في قلوبـهم، لمـاذا يتكلّم هذا هكذا بتجاديف. من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده» (مر ٢: ٥-٧).

ما قاله آريوس قديمًا عن عدم مساواة جوهر الإبن لجوهر الآب، يكرره شهود يـهوه اليوم، ويرتكزون أيضًا على عبارة «أبي أعظم مني» (يو ١٤: ٢٨) وعلى قول يسوع للشاب «ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله» (متى ١٩: ١٧). يرتكز هؤلاء علـى هـاتين الآيتيـن ليقولوا بأن الآب أعظم من الإبن وان الإبن يخضع للآب وان لا وحـدة جوهريـة بينـهما. صحيح ان الآب أعظم من الإبن لأن الآب هو مصدر وجود الإبن وكيانه وجوهره، ولأن كـل عمل إلهي يبدأ من الآب ويتمَّم بالإبن في الروح القدس. لكن هذا لا يتعارض بالطبع مع حقيقة ان الآب أعطى طبيعته ذاتها وبكليتها للإبن بالولادة وللروح القدس بالإنبثاق. «فـإن الذيـن يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم في الواحد» (١ يو ٥ : ٨).

التمايز بين الآب والإبن هو تمايز أقنومي (أي كون الآب أبًا والإبن ابنًا» وليس بحسب الجوهر لأن لديهما كليهما نفس الألوهة، وقد استمد الإبن طبيعته الإلهية من الآب ليس بالخلق في زمن ما، بل بالولادة قبل كل زمن، أي منذ الأزل. لذا فهو متساوٍ مع أبيه بحسب الجوهر لأن له الجوهر الإلهي ذاته الذي للآب ولأنه متحد مع الآب في الجوهر: «كل ما للآب هو لي» (يو ١٦: ١٥)، «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (يو ١٧: ١٠)، لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضًا» (يو ١٤: ٧)، «الذي رآني فقد رأى الآب... أنا في الآب... صدقوني اني في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ٩-١١).

لقد وعى الرسل وآباء المجمع المسكوني الأول (٣٢٥) ان في يسوع «يحل كل ملء اللاهوت جسديًا» (كو ٢: ٩)، وعلّمونا ان يسوع مساوٍ للآب في الجوهر، واننا عندما ننادي يسوع الله فللدلالة على انه من نفس جوهر الآب وهذا لا يعني أنهما أقنوم واحد أي شخص واحد.